الثّقافة والحضارة
في
التصوّر الإسلامي

● د. علي أحمد مدكور ●

الدارة ٨٣

منذ ذلك الفصام النكد بين الدين والحياة في بداية النهضة الأوربية الحديثة، ومع تواري القيم الإنسانية والخلقية رويداً رويداً لحساب المنافع والمصالح المادية ... منذ ذلك الوقت والعالم يعيش عصراً رديئاً؛ تسحق فيه «إنسانية» الإنسان، وتعلو قيمة كل شيء على قيمته. ولم يحل التقدم العلمي الهائل وتطبيقاته التقنية التي لا حدود لها دون ذلك، بل العكس هو ما حدث وما يحدث إلى الآن .. لكن ما علاقة هذا بالثقافة والحضارة في التصور الإسلامي وفي غيره من المذاهب المعاصرة ؟

إن عالم اليوم يشهد أعمالاً بالغة العنف والبشاعة والقسوة، وهي وإن اختلفت في أشكالها وألوانها من حروب مدمرة، وقتل للأبرياء، وغزو للأراضي بالقوة، وحرق للمؤسسات، وتدمير عشوائي للأحياء وساكنيها، ونسف للسكان ...الخ هذه كلها تعود لنفس الأسباب : النزاعات الطائفية والعرقية، والتعصب القومي، والولاء الأقليمي، وما يترتب على ذلك من رغبة في الاحتكار والاستغلال، ونزعة إلى الهيمنة وفرض السيطرة على الآخرين .. لكن ما علاقة كل هذا بمفهوم الثقافة والحضارة في التصور الإسلامي وفي غيره من الفلسفات والنظريات ؟

إن غياب وحدة الأسرة «المتخصصة»، وتخلي المرأة عن وظيفتها الأساسية في رعاية الناشئة، وإفراغ طاقتها في «الإنتاج المادي» و «صناعة الأدوات» على حساب «صناعة الإنسان» .. كل ذلك قد أدى إلى غياب البيئة الصالحة التي تنشأ وتُنمَّى فيها القيم والأخلاق «الإنسانية» – التي تتمثل في الجيل الجديد – والتي يستحيل أن تنشأ في وحدة أخرى غير وحدة الأسرة «المتخصصة» .. والنتيجة أجيال من الشباب الضائع الحائر الذي يفتقر إلى الحب والحنان والولاء والانتماء، اللهم إلا إلى عصابات القتل، والاغتصاب، والانتحار، بالهيرووين أو بالإيدز، أو بغيرهما .. لكن ما علاقة هذا بالثقافة والحضارة في التصور الإسلامي .. وفي غيره ؟

إن غياب المعيار الإلهي الثابت لقيم الحرية، والعدالة والعلم، والمعرفة، والعمل، .. إلخ قد أدى إلى ما يمكن أن يسمى بـ «غرور القوة»، وما يستتبع ذلك من محاولات فرض الهيمنة والسيطرة على مقدرات الشعوب مادياً ومعنوياً .. بقوة السلاح، أو بقوة التآمر الثقافي أو بهما معاً .. لكن ما علاقة هذا بمفهوم الثقافة والحضارة ومقوماتهما في التصور الإسلامي وفي غيره ؟

إن الإجابة عن التساؤلات السابقة وغيرها ستتضح – إن شاء الله – من خلال العرض التالي لمفهوم كل من الثقافة والحضارة ومقوماتهما في التصور الإسلامي، ومقارنتهما بالثقافات أو «الحضارات» المعاصرة.

• الثقافة في التصور الإسلامي •

أصول الثقافة في التصور الإسلامي :

تقوم الثقافة في التصور الإسلامي على قاعدة أساسية هي إفراد الله – سبحانه وتعالى – بالعبودية، ومن ثم إفراده بالحاكمية. وإفراد الله بالعبودية يتمثل في اتخاذ الله وحده إلهاً. وإفراده – سبحانه – بالحاكمية يعني تحكيم شريعة الله في كل مجالات الحياة.

وانطلاقاً من هذه القاعدة، فإن الثقافة في التصور الإسلامي ذات شقين : الأول : الشق المعياري، ويتمثل في شريعة الله، أي : كتاب الله، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم. والثاني : الشق التطبيقي ويتمثل في التطبيق العملي الواقعي الصحيح للشق المعياري.

إذن، فالشق المعياري يتمثل في شريعة الله، وشريعة الله تعني كل ما شرعه الله لتنظيم الحياة البشرية. وأهم ما يمثل هذا الجانب – كما يقول الأستاذ سيد قطب – ما يلي :

١ – **أصول الاعتقاد** : كتصور حقيقة الألوهية، وحقيقة الكون : غيبه وشهوده، وحقيقة

الحياة : غيبها وشهودها، وحقيقة الإنسان، والارتباطات بين هذه الحقائق كلها، وتعامل الإنسان معها كلها.

٢ - **أصول الحكم** : ويتمثل في الأوضاع السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والأصول التي تقوم عليها، لتتمثل فيها العبودية الكاملة لله وحده. كما تتمثل في التشريعات القانونية التي تنظم هذه الأوضاع.

٣ - **أصول الأخلاق والسلوك** : وتتمثل في المعايير والقيم والموازين التي تسود المجتمع، ويقوم بها الأشخاص، وتُؤَدَّى بها الأعمال في الحياة الاجتماعية من جميع جوانبها.

٤ - **أصول المعرفة** : وتتمثل في أصول العلم، وفي أصول النشاط الفكري، والتربوي، والفني، والأدبي، جملة وتفصيلاً.(١)

هذه هي مكونات الشريعة الإسلامية على الإجمال . والشريعة الإسلامية بمكوناتها هذه تمثل الشق المعياري للثقافة في التصور الإسلامي. ومعنى أن هذا الشق «معياري» أن كل ما عداه - من المناهج والنظم والتشريعات والقوانين وأنماط السلوك : الفكري والقولي والعملي - الفردي والجمعي - يقاس عليه، لكنه هو لا يقاس على شيء من خارج ذاته. وما ذلك إلا لأنه شق رباني، ثابت، لا يمكن التلقي فيه إلا عن الله.

أما الشق الآخر للثقافة في التصور الإسلامي، فهو الشق التطبيقي، أي التطبيق العملي الواقعي في الحياة للشق المعياري وبمعنى آخر، هو كل أنماط الشعور، والتفكير، والقول، والعمل، والسلوك، التي تأتي تطبيقاً عملياً واقعياً صحيحاً للجانب المعياري.

وعلى هذا، فإن كل المبادىء والقوانين والتشريعات التي تتناقض مع قوانين الشريعة الإسلامية في مصدرها أو في غايتها، لا تعتبر جزءاً من الثقافة الإسلامية. وكل التطبيقات والممارسات التابعة لها لا تدخل في مضمون الثقافة الإسلامية. وكل القوانين والعادات والتقاليد وأنماط التفكير والسلوك والعمل التي تشيع في المجتمعات الإسلامية، لكنها تختلف، أو تتناقض مع مبادىء وقوانين الشريعة، لا تعتبر من مكونات الثقافة الإسلامية، ولا تمت لها بأية صلة. بل إن هذه القوانين والعادات والتقاليد تعد من عوامل محاربة هذه الثقافة.

مفهوم الثقافة في التصور الإسلامي :

وبناءاً على ما سبق يمكن تعريف الثقافة في التصور الإسلامي بأنها شريعة الله الشاملة لأصول الاعتقاد، وأصول الحكم، وأصول المعرفة، وأصول الأخلاق والسلوك، وكل التشريعات والنظم والقوانين التي تخضع لها، وجميع أشكال التطبيق العملي الواقعي، وأنماط السلوك الفردي والجمعي، التي تتسق معها نصاً وروحاً.

خصائص الثقافة في التصور الإسلامي :

والثقافة الإسلامية بهذا المفهوم، هي ثقافة ربانية، تعتمد على الشريعة المتمثلة في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم. وهي من هذا المنطلق ثقافة عالمية إنسانية، لا تحدها الحدود الجغرافية أو الخرائط السياسية، أو تخوم الأرض، وإنما حدودها هي حدود فكرتها. فالإنسان المسلم والجماعة المسلمة يجب أن تمارس حياتها، وأن توجه حركتها ونشاطها وَفْقاً لمنهج الله، في كل مكان، وفي كل زمان.

إن الجانب المعياري في هذه الثقافة، وهو جانب الشريعة، جانب إلهي ثابت، يصف ما يجب أن تكون عليه الحياة على الأرض؛ بمن عليها وما عليها؛ ولذلك فهو جانب مطلق ومُلزم. أما جانبها التطبيقي العملي، فهو لازم لزوماً حتمياً للجانب المعياري، وإن تغيرت صوره وأشكاله – وهي لا بد أن تتغير – بتغير الزمان والمكان، ولكن في ضوء الموجهات المعيارية، وفي نطاق محورها.

والثقافة الإسلامية – بالمفهوم السابق وبالاضافة إلى ما سبق – تؤكد الصلة الدائمة بين المسلم وربه؛ وذلك من خلال تمرسه بها يومياً. وهي ثقافة عابدة؛ لأنها تجعل الإنسان يفرد ربَّه بالعبودية، ويخصه وحده بالحاكمية. ولأنها ثقافة عابدة تفرد الله بالعبودية، ومن ثم، بالحاكمية، فهي ثقافة حرة؛ لأنها تحرر الإنسان من العبودية لغير الله تعالى.

وهي أيضا ثقافةَ عادلة، حيث إنها ربانية وعالمية وليست قومية ولا محلية ولا إقليمية، ومن ثم – فهي تكره الاحتكار والاستغلال والظلم في كل زمان، وفي كل مكان، وفي جميع أنماط السلوك الإنساني، حتى لو كان هذا السلوك صادراً من الأنبياء : **﴿يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب﴾** (ص : ٣٨)، وحتى لو كان مع

الأعداء : **﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى، واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون﴾** (المائدة : ٨)

وهي ثقافة متعادلة : فيها التوازن بين ما يدركه الإنسان فيسلم به، وبين ما يتلقاه، فيبحث عن علله وبراهينه وغاياته، ويفكر في مقتضياته العملية، وتطبيقاته في حياته الواقعية. وفيها التوازن بين طلاقة المشيئة الإلهية، وثبات السنن الكونية. وفيها التوازن بين مجال المشيئة الإلهية الطليقة، ومجال المشيئة الإنسانية المحدودة. وفيها التوازن بين عبودية الإنسان المطلقة لله، وبين مقام الإنسان الكريم في الكون. وفيها التوازن في مصادر المعرفة بين التلقي من الوحي والنص، والتلقي من الكون والحياة، وفيها التوازن بين حاجات الإنسان الروحية وبين حاجاته المادية والاجتماعية.(٢)

يقول الأستاذ محمد أسد : إن الثقافة التي لا تستطيع أن تقيم توازناً بين حاجات الإنسان الجسمانية والاجتماعية وبين أشواقه الروحية، لا تستطيع - مهما بلغت من تقدم - أن تتغلب على استعداد الإنسان الأحمق للسقوط فريسة لأي هتاف عدائي، أو نداء للحرب. وإذا فقدت الثقافة توازنها، فإنها تصبح صورة قاسية من صور القلق والحيرة الذهنية، والتمزق النفسي، وفقدان الهدف الحقيقي للحياة.(٣)

والثقافة الإسلامية بهذا المفهوم وبهذه الخصائص، تختلف في مصدرها وفي غايتها عن الثقافات البشرية الأخرى اختلافاً بيِّناً. فالثقافات البشرية عموماً، والغربية منها على وجه الخصوص، تُعرَّف لدى بعض علماء الغرب بأنها «الأسلوب الكلي لحياة الجماعة». وهذا التعريف للثقافة يشمل جميع أنماط التفكير والعمل والسلوك المعرفي والوجداني والحركي. فطريقة تفكير الجماعة، وطريقتهم في العمل، وأساليبهم في التعليم والتعلم، وطرقهم في التعامل، ومعتقداتهم وقيمهم ونظمهم وحتى الطرق التي يأكلون ويشربون بها، والكيفية التي يمشي الناس بها في الطرقات أو يقودون بها سياراتهم ... إلى آخره - كل هذه أنماط ثقافية، تختلف باختلاف المجتمعات، وباختلاف الفلسفات والنظريات التي تغذي هذه الثقافات، وتوجه أنماط السلوك فيها.

وهذه الثقافات وصفية؛ أي أنها تصف الأسلوب الكلي لحياة الجماعة في زمن معين. وهي متغيرة في جانبيها : الاعتقادي الفلسفي، والسلوكي الواقعي، ولكن مع اختلاف في النسبة فقط. وليس هناك التزام مطلق بين الجانبين وهي بحكم بشريتها في المصدر، قومية وإقليمية

وشعوبية. كما أنها ثقافات مفروضة؛ حيث إن القوى أو الطبقات الاجتماعية القوية، هي التي تنجح في فرض ثقافتها عن طريق وسائل الإعلام والإعلان، والمناهج التربوية، والمؤسسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تشرع للمجتمع، وتنظم حركة نشاطه.

والجدول القادم يعقد موازنة موجزة بين خصائص الثقافة الإسلامية، وخصائص الثقافات الأخرى :

خصائص الثقافة الإسلاميـــة	خصائص الثقافات الأخرى
١ – ربانية : مصدرها القرآن والسنة	١ – بشرية : مصدرها الفلسفات والنظريات الوضعية.
٢ – عالمية، وإنسانية	٢ – قومية، وإقليمية، وشعوبية(٤)
٣ – جانبها المعياري ثابت. وجانبها التطبيقي الواقعي لازم لزوماً مطلقاً للجانب المعياري، وإن تغيرت صور هذا الجانب التطبيقي وأشكاله.	٣ – جانبها المعياري متغير نسبياً. وجانبها التطبيقي متغير دائماً، وغير ملتزم التزاماً كلياً أو مطلقاً بالجانب المعياري.
٤ – يجب أن تتغير وتتطور الأشكال والصور الثقافية، ولكن في ضوء الموجِّهات المعيارية وحول محورها.	٤ – لا حد لتغير الأشكال والصور الثقافية، مع غياب المعايير والقيم الإنسانية التي توجهها.
٥ – تعقد الصلة الدائمة بين الإنسان وربه، فيفرد الإنسان ربَّه بالعبودية ومن ثم، بالحاكمية.	٥ – تُعَبِّدُ العبادَ للعباد.
٦ – ثقافة حرة؛ حيث إنها تحرر الإنسان من العبودية لغير الله.	٦ – ثقافات مفروضة بواسطة الطبقات أو الجماعات المسيطرة اقتصادياً وسياسياً.
٧ – ثقافة متوازنة : فيها توازن بين الغيب والشهادة، وبين الروح والمادة.	٧ – تفتقد التوازن.
٨ – ثقافة عادلة، حيث إنها ثقافة ربانية وعالمية، ليست قومية ولا إقليمية، فهي تكره الاحتكار والاستغلال والظلم في كل زمان وفي كل مكان، وفي جميع أنماط السلوك.	٨ – لأنها ثقافة بشرية، فهي قومية وشعوبية، تقوم على الاحتكار والاستغلال والظلم.

أسس التغير الثقافي في الإسلام :

يقوم التصور الإسلامي السابق للثقافة على أساسين هامين : **الأساس الأول** أن الثقافة ليست تراثاً إنسانياً لا وطن له ولا جنس ولا دين، إلا فيما يتعلق بالعلوم البحتة(٥) وتطبيقاتها العملية فقط، ودون تجاوز لهذه المنطقة من المعرفة إلى التفسيرات الفلسفية لنتائج هذه العلوم، ولا إلى التفسيرات الفلسفية للإنسان ونشاطه وتاريخه، ولا إلى الفنون والآداب والتعبيرات الشعورية جميعاً.

والأساس الثاني لتصور الإسلام للثقافة - كما يقول الأستاذ سيد قطب - «هو عدم فصل العلم» عن صاحبه فيما يختص بكل العلوم المتعلقة بمقومات التصور، المؤثرة في نظرة الإنسان إلى الوجود، والحياة، والنشاط الإنساني، والأوضاع، والقيم، والموازين، والتقاليد، والعادات، وسائر ما يتعلق بحياة الكائن الإنساني من هذه النواحي ...»(٦)

إن الإسلام يعتبر - فيما عدا العلوم البحتة وتطبيقاتها العملية - أن هناك نوعين من الثقافة : الثقافة الإسلامية، القائمة على أساس التصور الإسلامي - كما سبق أن بينا -؛ والثقافة البشرية القائمة على أساس فلسفات ومناهج شتى، ترجع كلها إلى قاعدة واحدة، ومصدر واحد، هو العقل البشري، والفكر البشري، الذي لا يخضع في حكمه إلى ميزان الله.

فما موقف الإسلام - إذن - من تأثر الثقافة الإسلامية بالثقافات الأخرى ؟ لقد بنى الإسلام موقفه فيما يتصل بالتأثر الثقافي والتغير الثقافي على الأساسين السابقين.

فالتغير الثقافي قد ينبع من داخل الثقافة نفسها، وقد يكون وافداً عليها من خارجها. فإذا كان التغير نابعاً من داخل الثقافة، ومُوجَّهاً بمعاييرها فإنه لا توجد مشكلة. لكن المشكلة توجد عندما يكون التغير وافداً عليها من خارجها. وهنا نجد أن الثقافة الإسلامية تقبل المتغيرات المتصلة بالعلوم والمعارف البحتة والتطبيقات المتصلة بها الوافدة من الخارج، مع الحذر مما يكون قد علق بها من التفسيرات الفلسفية.

إن الثقافة الإسلامية : ثقافة ربانية، وهي - لذلك - إنسانية، وعالمية، فيها ما يستوعب النشاط البشري كله؛ لأن فيها من المناهج والقواعد والخصائص ما يكفل نمو هذا النشاط وحيويته. ولقد ساد المسلمون، وكانوا أساتذة العالم عندما كان سلوكهم موجَّهاً بأصول ثقافتهم، وكانت المتغيرات والمبتكرات الثقافية في العالم نابعة منهم.

إنه ليس بخاف الآن أن الاتجاه التجريبي الذي قامت عليه الحضارة الصناعية الأوربية الحاضرة قد نشأ ابتداء في الجامعات الإسلامية، مستمداً أصوله من التصور الإسلامي وتوجيهاته إلى الكون وطبيعته الواقعية، ومدخراته وأقواته. يقول بريفولت في كتابه «Making of Humanity» : «إن ما يدين به علمنا لعلم (العرب)(٧) ليس فيما قدموه إلينا من كشوف مدهشة لنظريات مبتكرة فحسب، إنه مدين له بوجوده نفسه».(٨)

لكن الذي حدث بعد ذلك أن أوربا قد استقلت بهذا المنهج، ثم أخذت في عصر النهضة تُنمّيه وتُرقّيه، بينم كان قد تُرك وهُجر نهائيا في العالم الإسلامي؛ بسبب بُعد هذا العالم تدريجياً عن عقيدته وتصوره الأساسي، بفعل عوامل كامنة في محيطه، وبفعل الكيد والهجوم الصهيوني والصليبي عليه من خارجه.

«ثم قطعت أوربا بين المنهج الذي اقتبسته وبين أصوله الاعتقادية الإسلامية، وشردت به نهائيا بعيداً عن الله؛ في أثناء شرودها عن الكنيسة التي كانت تستطيل على الناس – بغياً وعدواً – باسم الله !(٩)

ومنذ ذلك الحين أصبح نتاج الفكر الأوربي في جملته شيئا آخر ذا طبيعة مختلفة من أساسها عن مقومات الدين عامة، ومقومات التصور الإسلامي خاصة.

ولذلك فإنه يجب على المسلم ألاّ يأخذ إلاّ من المصدر الرباني، وألاّ يرجع إلاّ إلى أصول هذا المصدر. وأن يعتمد في ذلك على نفسه إن استطاع، وإلا فلا يأخذ إلا عن مسلم تقي، يوثق في دينه وتقواه.

إن الأشكال والصور العملية والتطبيقية للثقافة الإسلامية تتغير ويجب أن تتغير – من آن لآخر ومن مكان لآخر. وتخضع عملية التغير الثقافي – في كمها وكيفها – لمدى تمسك المجتمع بالقيم والمبادىء الأصيلة فيه. فالمجتمع الذي يؤمن باجتماعية القيم والنظم، واجتماعية الثقافة : عمومياتها وخصوصياتها ومتغيراتها، تجتاحه رياح التغير السريع المتلاحق، ويظل الإنسان فيه يلهث وراء المتغيرات، ولا يكاد يستقر إلى قرار. أما المجتمع الإسلامي الذي تقوم معايير الثقافة فيه على مجموعة النظم والقيم والأصول الإلهية الثابتة، فإنه عادة ما يتغير بسهولة، ودون مشقة، ودون انتقال من الضد إلى الضد، ومن النقيض إلى النقيض؛ لأن التغير يحدث وَفْقاً لمجموعة من النظم والقيم الإلهية الخالدة، التي وضعها الله لترقية حياة الإنسان في كل زمان ومكان.

والمتغيرات هي كل الأفكار والمبتكرات أو المخترعات الجديدة على المجتمع سواء كانت نابعة من داخل المجتمع أم كانت وافدة عليه من الخارج. وهذه المتغيرات تأخذ فترة اختبار، تطول أو تقصر، تبعاً لمدى أهميتها وحساسيتها. وهي تظل طوال فترة الاختبار في حالة قلق وتردد وحيرة. فإن ثبت أن ليس وراءها فلسفة ما، أو نظرة مغايرة لتصور الإسلام للوجود والكون، وتفسيره للسلوك الإنساني، ومفهومه لوظيفة الإنسان في الأرض، قُبِلت وصارت جزئية من جزئيات الثقافة الإسلامية. أما إذا اختلفت أو تناقضت مع منهج الإسلام، أو مع أية جزئية من جزئياته، فإنها تُرفض وتُنبذ إلى أن تضمر وتموت.

وهذه المتغيرات هامة جداً، وخطرة جداً في مفهوم منهج التربية الإسلامية. أما أنها هامة جداً؛ فلأنها الباب المفتوح لترقية عمارة الأرض وفق منهج الله. فالابتكارات والاختراعات - مثلا - من أهم وسائل رقي الحياة على وجه الأرض، وذلك إذا ما استخدمت نتائجها في خير الإنسان والبشرية جميعاً. لكن المتغيرات خطرة جداً أيضا؛ لأن المسلمين إذا لم يكونوا واعين بها، وبالفلسفات والنظريات الكامنة خلفها، وبمدى اتفاقها أو تناقضها مع أصول الإسلام نصاً وروحاً، وإذا لم يكونوا قادرين على فهم وتحليل وتفسير وتقويم المتغيرات وفقاً للمفهومات الإسلامية، فإنها تحيد بهم لا محالة عن منهج الله، كما حدث في القرنين الماضيين.

وهنا تكمن القيمة الحقيقية لمنهج التربية الإسلامية الذي يُعدُّ الإنسان المسلم كي يكون قادراً على النظر إلى الكون كله على أنه كتاب مفتوح ينهل منه، ويستعين بكل ما يساعده فيه على تحقيق غايته الكبرى، وهي عبادة الله، والقيام بحق استخلاف الله له في الأرض؛ بعمارتها واستغلال طاقاتها ومدخراتها، وترقية الحياة فيها بالإبداع المادي، والاستمتاع بزينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق.

وبعد، فهل بعد ذلك يمكن أن يوصم الإسلام بأنه ليست له ثقافة خاصة، أو أن ثقافته إغريقية في أساسها ؟!

● الحضارة في التصور الإسلامي ●

مفهوم الحضارة في التصور الإسلامي :

عندما يكون الجانب التطبيقي في الثقافة الإسلامية ترجمة عملية وواقعية صحيحة للجانب المعياري فيها، مع استخدام كل معطيات الإنسان والزمان والمكان .. تكون الحضارة. إذن فالحضارة هي عمارة الأرض وترقية الحياة على ظهرها : إنسانياً، وخلقياً، وعلمياً، وأدبياً، وفنياً، واجتماعياً، وفق منهج الله وشريعته.

وبناء على هذا المفهوم، فإن «المجتمع الإسلامي» – وهو المجتمع الذي يطبق شريعة الله في كل جوانب الحياة – هو وحده «المجتمع المتحضر». أما المجتمعات الأخرى التي تنكر وجود الله أصلاً، أو تجعل له ملكوت السماوات وتعزله عن ملكوت الأرض، أو لا تطبق شريعته في نظام الحياة ولا تُحَكِّم منهجه في حياة البشر، فهذه كلها مجتمعات جاهلية أو متخلفة(١٠) لأنها لا تَدْخُل في دين الله الذي حدده – سبحانه – في قوله : ﴿ **إن الحكم إلا لله، أمر ألا تعبدوا إلاّ إيَّاه .. ذلك الدين القيم**﴾. (يوسف : ٤).

وقد أقسم سبحانه وتعالى بنفسه – كما يقول ابن القيم – على نفي الإيمان عن العباد حتى يُحَكِّمُوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل ما شجر بينهم من الدقيق والجليل، ولم يكتف منهم بذلك حتى يسلموا تسليماً :(١١) ﴿ **فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً** ﴾ (النساء : ٦٥).

إن من أبرز سمات الحضارة في التصور الإسلامي هي – كما يقول الأستاذ محمد أسد – «ذاتية الحضارة الإسلامية».(١٢) فالحضارة الإسلامية ليست ثمرة تقاليد متوارثة، ولا نتيجة تطورات وتيارات فكرية آتية من الماضي، وإنما هي انبعاث ذاتي مباشر من القرآن الكريم، ومن سنة الرسول عليه الصلاة والسلام، ومن تطبيقهما تطبيقاً عملياً صحيحاً في واقع الحياة.

أصول الحضارة في التصور الإسلامي :

فالحضارة الإسلامية – كما يقول الأستاذ سيد قطب – : يمكن أن تتخذ أشكالاً متنوعة في تركيبها المادي والتشكيلي، لكن الأصول والقيم التي تقوم عليها ثابتة؛ لأنها هي مقومات هذه الحضارة. وهذه الأصول والمقومات هي :

١ – أن تكون الحاكمية العليا في المجتمع لشريعة الله.

٢ – أن تكون آصرة التجمع الأساسية في المجتمع هي العقيدة.
٣ – أن تكون إنسانية الإنسان هي القيمة العليا في المجتمع.
٤ – أن تكون الأسرة هي قاعدة البناء الاجتماعي.
٥ – أن يقوم الإنسان بالخلافة في الأرض على أساس الإحسان في العمل.

ونتناول هذه الأصول بشيء من التفصيل فيما يلي :

الأصل الأول : هو أن تكون الحاكمية في المجتمع لله؛ وبذلك يتحرر الإنسان فيه من العبودية لغير الله. «فحين تكون الحاكمية العليا في المجتمع لله وحده – متمثلة في سيادة الشريعة الإلهية – تكون هذه هي الصورة الوحيدة التي يتحرر فيها البشر تحرراً كاملاً وحقيقياً من العبودية للبشر، وتكون هذه هي «الحضارة الإنسانية»، لأن حضارة الإنسان تقتضي قاعدة أساسية من التحرر الحقيقي الكامل للإنسان، ومن الكرامة المطلقة لكل فرد في المجتمع .. ولا حرية – في الحقيقة – ولا كرامة للإنسان – ممثلاً في كل فرد من أفراده – في مجتمع بعضه أرباب يشرعون وبعضه عبيد يطيعون !»(١٣)

إن الشعور بالحرية والكرامة هو الحالة الدائمة التي ينبغي أن يكون عليها المؤمن في تصوره وتقديره للأشياء والأحداث والقيم والأشخاص. وإفراد الله بالعبودية، ومن ثم – إفراده بالحاكمية يؤدي إلى الشعور بالاستعلاء، وهو شعور «يجب أن تستقر عليه نفس المؤمن إزاء كل شيء، وكل وضع، وكل قيمة، وكل أحد، الاستعلاء بالإيمان وقيمه على جميع القيم المنبثقة من أصل غير أصل الإيمان»(١٤)

لقد تمثل الشعور بالاستعلاء .. استعلاء الإيمان في موقف ربعى بن عامر عندما أرسله سعد بن أبي وقاص قبل موقعة القادسية رسولاً إلى رستم قائد الجيوش الفارسية وأميرها فدخل عليه، وقد جلس على سرير من ذهب، في مجلس مزين بالنمارق والزرابي، وكان رستم يتلألأ في تاجه ويواقيته الثمينة، دخل ربعى بثياب صفيقة، وترس، وفرس قصيرة، ولم يزل راكبها حتى داس على طرف البساط، ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد، وأقبل وعليه سلاحه، فقالوا له : ضع سلاحك، فقال : إني لم آتكم، وإنما جئتكم حين دعوتموني، فإن تركتموني هكذا وإلا رجعت. فقال رستم : ائذنوا له، فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق فخرق عامتها. «فقال له رستم : ما جاء بكم ؟ فقال : الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام»(١٥)

إن هذا الشعور، الشعور بالحرية والكرامة، أو «استعلاء الإيمان»، لا يتأتي إلا حين تكون

العبودية في المجتمع لله وحده، – ومنَ ثم – تكون الحاكمية فيه لله وحده .. عندئذ – فقط – يكون هذا المجتمع متحضراً.

أما المجتمع الذي تكون الحاكمية فيه لغير الله؛ فهو مجتمع جاهلي متخلف؛ إذ لا حرية حقيقية، ولا كرامة حقيقية للإنسان فيه؛ لأن بعضه أرباب يُشرِّعُون، وغالبيته عبيد يطيعون.

ويؤكد هذا المعنى الدكتور يوسف العش في بحثه عن روح الحضارة الإسلامية، إذ يقول : إن أبرز اختلاف بين مفهوم الحضارة في الفكر الإسلامي ومفهومها في الفكر الغربي يقوم على تفسير «التقدم». «فالغرب يرى التقدم مادياً خالصاً بينما يرى الإسلام أن التقدم معنوي ومادي، وأنه إنساني أصلاً، وتوحيدي أساساً. فكل تقدم في مفهوم الإسلام يجب أن يقوم على التحرر من عبودية غير الله، ومن عبادة ما سوى الله، فلا يؤمن بسلطان غير سلطانه. والأصل في الوحدانية هو التحرر من عبودية غير الله، ومن كل سلطان غير سلطان الله».(١٦)

الأصل الثاني : هو أن تمثل العقيدة رابطة التجمع الأساسية في المجتمع. وبذلك أيضا يكون المجتمع الإسلامي هو المجتمع الوحيد المتحضر؛ لأن العقيدة – وحدها – تمثل رابطة التجمع الأساسية فيه. فالعقيدة هي الجنسية التي تجمع بين الأبيض والأسود، والأحمر والأصفر، والعربي والفارسي، والرومي والحبشي. فسائر أجناس الأرض يجتمعون في أمة واحدة، ربها واحد هو الله، ومنهجها واحد لأنه من الله. والأتقى فيها هو الأكرم عند الله. وبذلك فإن جنسية المسلم هي عقيدته التي تجعله عضواً في «الأمة الإسلامية».

والعقيدة هي الوطن؛ فلا وطن للمسلم إلا الذي تقام فيه شريعة الله، فتقوم الروابط بينه وبين سكانه على أساس الارتباط في الله. إذن فالارتباط على أساس العقيدة هو الذي يجعل المسلم عضوا – أيضاً – في «دار الإسلام».

إنه لا قرابة للمسلم إلا تلك التي تنبثق من العقيدة في الله فتصل الوشيجة بينه وبين أهله في الله. إنه على أساس من العقيدة، طرد الإسلام أبا لهب – عم الرسول العربي، القرشي الهاشمي – من «الجنسية الإسلامية» – كما يقول الشيخ علي الطنطاوي – بل وجعل سبَّه عبادة، وشتمه صلاة : ﴿**تبت يدا أبي لهب وتب**﴾ . وعلى العكس من ذلك نجد الرسول – عليه الصلاة والسلام – يضم عبداً فارسياً، غير عربي – لا إلى الإسلام فقط، بل إلى بيت النبوة، فيقول : «سلمان من أهل البيت».(١٧)

وعلى أساس العقيدة يفرق الإسلام بين نوح ولوط وامرأتيهما : ﴿**ضرب الله مثلا للذين**

كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما، فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً، وقيل ادخلا النار مع الداخلين﴾ (التحريم : ١٠).

والعكس يحدث مع امرأة فرعون :

﴿وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت : ربِّ ابن لي عندك بيتاً في الجنة، ونجِّني من فرعون وعمله، ونجِّني من القوم الظالمين﴾ (التحريم : ١١).

أما وشائج اللحم والدم والأرض والطين، كالجنس واللون، والقومية والقرابة، والإقليمية .. الخ فإن الإسلام يرفع الإنسان عن مستواها. والرسول - عليه الصلاة والسلام - يقول للمهاجرين والأنصار : «دعوها فإنها منتنة».

إذن، فالآصرة واحدة وهي «العقيدة»، إذا انعقدت فالمسلم عضو في «الأمة الإسلامية»، وعضو في «دار الإسلام»، والمؤمنون كلهم «إخوة»، ولو لم يجمعهم نسب ولا صهر : «إنما المؤمنون إخوة .. بالتوكيد والقصر. ولا ولاية لأحد عليهم من خارجهم، بل بعضهم أولياء بعض : **﴿ إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، والذين آووا ونصروا بعضهم أولياء بعض ﴾** (الأنفال : ٧٢).

إن التاريخ الإسلامي يذكرنا أنه حين انعقدت آصرة العقيدة في نفوس المسلمين، تحطمت الهجمات الصليبية عليهم. فالقواد الذين نسوا وشائج اللحم والدم والأرض والقوم قادوا المسلمين إلى النصر، ومنهم صلاح الدين وتوران شاه والظاهر بيبرس وسيف الدين قطز وغيرهم وغيرهم. إن هذه القيادات نسيت القوم والأرض وتمسكت بالعقيدة، فانتصرت تحت راية «لا إله إلا الله».

ولآصرة التجمع الأساسية في المجتمع الإسلامي حكمة «ربانية» بالغة، ومن ثم، فهي «عقلية» و «علمية» ! يقول الأستاذ سيد قطب : حين تكون آصرة التجمع الأساسية في مجتمع ما هي العقيدة والتصور والفكرة ومنهج الحياة، يكون ذلك ممثلاً لأعلى ما في إنسانية الإنسان من خصائص. أما حين تكون آصرة التجمع في مجتمع هي الجنس واللون والقوم والأرض .. وما إلى ذلك من روابط، فإن هذه الروابط كلها لا تمثل الخصائص العليا للإنسان، وذلك لسببين حاسمين : السبب الأول هو أن الإنسان يبقى إنساناً بعد الجنس واللون والقوم والأرض، لكنه لا يبقى إنساناً بعد العقيدة، والفكرة، وحرية الإرادة !^(١٨)

والسبب الثاني هو أن الانسان يملك بمحض إرادته الحرة - أن يغير عقيدته وتصوره وفكره، ومنهج حياته - فهذه مزايا شخصية يستطيع من شاء اكتسابها - كما يقول الشيخ علي

الطنطاوي(١٩) ولكنه لا يملك أن يغير لونه ولا جنسه، كما أنه لا يملك أن يحدد مولده في قوم ولا في أرض.

والخلاصة أن «المجتمع الذي يتجمع فيه الناس على أمر يتعلق بإرادتهم الحرة واختيارهم الذاتي هو المجتمع المتحضر .. أما المجتمع الذي يتجمع فيه الناس على أمر خارج عن إرادتهم الإنسانية، فهو المجتمع المتخلف ... أو بالمصطلح الإسلامي ... هو «المجتمع الجاهلي» !»(٢٠)

وإذا ما طبقنا هذه القاعدة على النظام في المجتمع نجد ما يلي :

بالنسبة للرأسمالية، لقد أقامت المجتمعات الرأسمالية امبراطوريات على أساس قومي، وجنسي، وجغرافي، فكانت النتيجة أن ساد الاحتكار والاستغلال والإذلال لإنسانية الإنسان على يد الامبراطوريات القديمة والحديثة.

أما الشيوعية فإنها ترمي إلى إقامة مجتمع على أساس روابط أخرى تتخطى حواجز الجنس والقوم والأرض واللون واللغة، لكنها لم تحاول أن تقيمه على قاعدة «إلٰهية»، أو حتى «إنسانية» عامة، بل بدلاً من ذلك تحاول إقامته على قاعدة طبقة «البروليتاريا»، فجاءت صورة هذا التجمع وجهاً آخر للتجمع الروماني القديم الذي كان يقوم على قاعدة طبقة «الأشراف». والنتيجة أن هذا التجمع لا يبرز إلا أسوأ ما في الكائن الإنساني، وهو الحقد الأسود على سائر الطبقات الأخرى، بينما اختفت إرادة الإنسان في التغير وحريته في عمارة الأرض وترقية الحياة على وجهها.

والوضع في الإسلام على العكس من ذلك تماما. فلقد كان من النتائج الباهرة لإقامة المجتمع على آصرة العقيدة القائمة على الإرادة الحرة والاختيار الحر للإنسان، – أن أصبح المجتمع المسلم مجتمعاً مفتوحاً لجميع الأجناس والأقوام والألوان واللغات، فانصهرت في بوتقته خصائص الأجناس البشرية وكفاياتها وطاقاتها، وأخرجت حضارة إنسانية رائعة، تحوي خلاصة الطاقات البشرية في زمانها مجتمعة. « ولم تكن هذه الحضارة الضخمة يوماً ما «عربية»، وإنما كانت دائما «إسلامية» ولم تكن يوماً ما «قومية»، إنما كانت دائماً «عقيدية».(٢١)

الأصل الثالث : من أصول ومقومات الحضارة الإسلامية هو أن تكون «إنسانية» الإنسان هي القيمة العليا في المجتمع، وأن تكون الخصائص «الإنسانية» فيه هي موضع التكريم والاعتبار، فعندئذ يكون المجتمع متحضراً. أما «حين تكون «المادة» – في أية صورة – هي القيمة العليا .. سواء في صورة «النظرية» كما في التفسير الماركسي للتاريخ ! أو في صورة الإنتاج المادي كما في .. سائر المجتمعات التي تعتبر الإنتاج المادي قيمة تُهدر في سبيلها القيم والخصائص

الإنسانية .. فإن هذا المجتمع يكون مجتمعا متخلفاً»(٢٢) مهما بلغت درجة تقدمه العلمي والاقتصادي والصناعي.

لكن المجتمع المتحضر الإسلامي لا يحتقر المادة – كما يقول الأستاذ سيد قطب –، «ولكنه فقط لا يعتبرها القيمة العليا التي تهدر في سبيلها خصائص «الإنسان» ومقوماته ! .. وتهدر من أجلها حرية الفرد وكرامته. وتهدر فيها قاعدة «الأسرة» ومقوماتها، وتهدر فيها أخلاق المجتمع وحرماته ... إلى آخر ما تهدره المجتمعات الجاهلية من القيم العليا والفضائل والحرمات لتحقيق الوفرة في الإنتاج المادي»(٢٣).

إن المجتمع المتحضر هو الذي تكون «القيم الإنسانية» و «الأخلاق الإنسانية» التي تقوم عليها، هي السائدة فيه. وهذه القيم هي التي تنمي خصائص إنسانية الانسان، وهي التي تميزه عن غيره من المخلوقات. وهذه القيم في المجتمع الإسلامي ثابتة، وليست متغيرة كما هو الحال عند التطوريين وأصحاب التفسير المادي للتاريخ. فهي ليست وليدة البيئة، ولا مختلفة باختلاف البيئات الزراعية والصناعية والرأسمالية والاشتراكية ...الخ، وإنما هي قيم إنسانية ذات ميزان ثابت، وهي مقررة في الشريعة الإسلامية منذ جاءت، وما على الإنسان إلا أن يمضي في بنائها وصيانتها في كل المجتمعات التي يقيمها : حضرية كانت أم بدوية، صناعية كانت أم زراعية، فالمهم – في كل الأحوال – هو الارتقاء صعداً بالخصائص الإنسانية وحراستها من النكسة إلى الحيوانية التي تؤدي إلى التخلف أو الجاهلية.

إن الحضارة الإسلامية تقوم بهذه القيم وبهذه الأخلاق في كل مكان وفي كل بيئة. أما أشكالها وصورها المادية فهي كثيرة ومتنوعة؛ لأنها في كل بيئة تستخدم المقدرات والمعطيات الموجودة بها فعلاً، وتنميها وفقا لميزان الله الثابت، وقيم الإنسان المقررة في شريعة الله.

فالإسلام حين يدخل المجتمعات البدائية ينشيء الحضارة المناسبة لهذا المجتمع. حيث ينتقل الناس من عبادة غير الله إلى عبادة الله وحده، وتكتسي أجسامهم العارية وفقا لتوجيه الله، وينتقلون من الخمول والبلادة إلى النشاط والعمل الموجه لاستغلال كنوز الأرض وخيراتها، ويخرجون من طور القبيلة أو العشيرة إلى طور «الأمة الإسلامية»، ومن وشيجة الأرض والطين إلى وشيجة العقيدة والدين، ومن طور الأمية والجهل إلى طور العلم وإعمال العقل. هذه هي الحضارة الخاصة بهم.

وحين يدخل المجتمعات المتقدمة صناعياً أو زراعياً أو غير ذلك، فإنه يستخدم كل ما لديها من معطيات، ويقيم حضارة هذه المجتمعات مستفيداً مما لديها.

وهكذا يقيم المجتمع الإسلامي أشكالاً مختلفة ومتنوعة من الحضارات بناء على قيمه الثابتة، وأصوله المستقلة، بحيث يبقى للمجتمع طابعه الخاص، وميزته الفريدة النابعة من أصله الرباني، وصبغته الإنسانية.(٢٤)

إن هذه «الصبغة الإنسانية» النابعة من العقيدة الإسلامية هي التي تفسر لنا اجتياح الإسلام لفكر الامبراطوريات التي فتحها، وثقافاتها، وعاداتها وتقاليدها، وصياغتها صياغة جديدة، حتى لكأن الثقافات والموروثات المعمرة التي كانت بها لم تكن – كما يقول الأستاذ أنور الجندي.(٢٥)

إن أهم خصائص الحضارة الإسلامية على الإطلاق هي إيصال العقيدة الإسلامية والقيم الإنسانية النابعة منها بالنظام الاجتماعي القائم عليها. فالفصل بينهما يؤدي إلى سقوط الأخلاق، الذي يؤدي – بدوره – إلى تحلل النسيج الاجتماعي، وضعفه .. وموته، مهما كانت القوة الاقتصادية أو العسكرية السائدة في هذا المجتمع.

إن التخلف الحقيقي – في مفهوم المجتمع المتحضر الإسلامي – هو تحويل منجزات العلم الهائلة إلى قوى باغية للتدمير والتسلط. وتسخير إمكانيات العلم غير المحدودة في نشر الفوضى والعادات غير الأخلاقية، بدلا من استخدامها في إعلاء القيم الإنسانية، وفي خدمة الإنسان دون بغي أو ظلم أو تحكم أو إبادة.

إن مهمة العلم – في مفهوم المجتمع المتحضر الإسلامي – ليست قهر الطبيعة أو الانتصار عليها، بل التلطف مع الطبيعة، والجد في اكتشاف قوانين الله فيها؛ فالطبيعة ما خلقها الله لتقهر، بل لاستخراج خيراتها ومكنوناتها التي أودعها الله فيها، وجعلها مسخرة لخدمة الإنسان، المسخَّر له الأرض وما فيها، والمحسوب حسابه في تصميم هذا الكون قبل أن يكون : ﴿ **وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه** ﴾ (الجاثية : ١٣)، ﴿ **وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهاراً وسبلاً لعلكم تهتدون** ﴾ (النحل : ١٥)، ﴿ **ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض، والفلك تجري في البحر بأمره، ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ؟ إن الله بالناس لرؤوف رحيم** ﴾ (الحج : ٦٥).

الأصل الرابع : هو أن تكون «الأسرة» هي قاعدة البناء الاجتماعي، وأن تقوم على أساس

«التخصص» بين الزوجين في العمل، وأن تكون رعاية الجيل الناشيء هي أهم وظائف الأسرة. فالمجتمع الذي هذا شأنه هو المجتمع المتحضر .. ذلك أن الأسرة على هذا النحو – في ظل المنهج الإسلامي – كما يقول الأستاذ سيد قطب – «تكون هي البيئة التي تنشأ وتُنَمَّى فيها القيم والأخلاق «الإنسانية» – ممثلة في الجيل الناشيء، والتي يستحيل أن تنشأ في وحدة أخرى غير وحدة الأسرة. فأما حين تكون العلاقات الجنسية (الحرة كما يسمونها) والنسل (غير الشرعي) هو قاعدة المجتمع .. حين تقوم العلاقات بين الجنسين على أساس الهوى والنزوة والانفعال، لا على أساس الواجب والتخصص الوظيفي في الأسرة .. حين تصبح وظيفة المرأة هي الزينة والغواية والفتنة .. وحين تتخلى المرأة عن وظيفتها الأساسية في رعاية الجيل الجديد، وتُؤْثر هي – أو يُؤْثر لها المجتمع – [أن تكون عاملة في أي مكان، بالنهار أو بالليل] .. حين تنفق طاقتها في «الإنتاج المادي» و «صناعة الأدوات»، ولا تنفقها في «صناعة الإنسانية» ! لأن الانتاج المادي يومئذ أغلى وأعز وأكرم من «الإنتاج الإنساني»، عندئذ يكون هذا هو «التخلف الحضاري» بالقياس الإنساني .. أو تكون هي الجاهلية بالمصطلح الإسلامي !»(٢٦)

إذن فالتخصص الوظيفي في الأسرة – التي تقوم بـ «صناعة الإنسانية» – هو الأساس في المجتمع المتحضر الإسلامي.

لقد شاءت فطرة الله أن يكون ميدان إنشاء العنصر الإنساني وتنشئته، هو ميدان عمل المرأة بالدرجة الأولى. ويقارن الشيخ محمد متولي الشعراوي بين ميدان عمل المرأة هذا وبين ميدان عمل الرجل خارج البيت. ويرى أن ميدان عمل المرأة أهم وأدق من ميدان عمل الرجل؛ لأن الرجل – بحكم عمله خارج البيت – إنما يتعامل مع «أشياء» هي كلها مسخرة لخدمة الإنسان، الذي هو أكرم ما في الوجود كله. أما المرأة فمهمتها هي التعامل مع هذا المخلوق الراقي، الكريم على الله، وهو الإنسان. تتعامل معه كزوج فيسكن إليها، وتتعامل معه جنيناً في بطنها، ووليداً في حضنها، ورضيعاً تغذيه وتحنو عليه، وطفلاً، وصبياً، وشاباً تربيه وترعاه وتضرب له المثل.(٢٧)

إن ترك المرأة لهذا الميدان الذي هو مجال عملها الرئيسي، – والذي خلقها الله وفطرها لتحسن الأداء فيه – إلى ميدان آخر هو مأساة بكل المقاييس. يقول الأستاذ عباس محمود العقاد : إن «المجتمع الذي يتزاحم فيه الرجال والنساء على عمل واحد في المصانع والأسواق، لن يكون مجتمعاً صالحاً، مستقيماً على سواء الفطرة، مستجمعاً لأسباب الرضى والاستقرار بين بناته وبنيه؛ لأنه مجتمع يبذر جهوده تبذير السرف والخطل، على غير طائل، ويختل فيه

نظام العمل والسوق، كما يختل فيه نظام الأسرة والبيت.

«فالمرأة لم تزود بالعطف والحنان والرفق بالطفولة، والقدرة على فهمها وإفهامها، والسهر على رعايتها في أطوارها الأولى لتهجر البيت، وتلقي بنفسها في غمار الأسواق والدكاكين .. وسياسة الدولة كلها ليست بأعظم شأناً، ولا بأخطر عاقبة، من سياسة البيت؛ لأنهما عالمان متقابلان : عالم العراك والجهاد، يقابله عالم السكينة والاطمئنان؛ وتدبير الجيل الحاضر، يقابله تدبير الجيل المقبل ... وكلاهما في اللزوم وجلالة الخطر سواء»(٢٨)

وإذا كان ميدان المرأة الحقيقي هو البيت بمن فيه وما فيه، فإن تركها لهذا الميدان وخروجها للعمل في المجتمع الخارجي على اتساعه يعد تخريباً للميدان الحقيقي الذي تركته، وللميدان الجديد الذي لم تعد له بالفطرة والاستعداد والدربة. «ولولا مركب النقص، لكان للمرأة فخر بمملكة البيت، وتنشئة (المستقبل) فيه، لا يقل عن فخر الرجل بسياسة (الحاضر)، وحسن القيام على مشكلات المجتمع التي تحتاج إلى الجهد والكفاح. وهي لو رجعت إلى سليقتها، لأحسَّت أن زهوها بالأمومة، أغلى لديها، وألصق بطبعها من الزهو بولاية الحكم ورئاسة الديوان – فليس في العواطف الإنسانية شعور يملأ قلب المرأة، كما يملؤه الشعور بالتوفيق في الزواج، والتوفيق في إنماء البنين الصالحين، والبنات الصالحات ..»(٢٩)

إذن فقضية الأسرة والعلاقات بين الجنسين، قضية حاسمة – كما يقول الأستاذ سيد قطب في تحديد صفة المجتمع ... فالمجتمعات التي تسود فيها النزعات الحيوانية لا يمكن أن تكون مجتمعات متحضرة، مهما تبلغ من التفوق الصناعي والاقتصادي والعلمي(٣٠).

إن هذه المجتمعات متخلفة أو جاهلية .. من وجهة نظر «الإسلام»، وبمقياس خط التقدم «الإنساني»، مهما كانت درجة تفوقها العلمي أو الاقتصادي.

والخلاصة أن الإسلام هو الحضارة، والمجتمع الإسلامي هو المجتمع المتحضر، لأنه يؤمن أن إعداد جيل يترقى في خصائص «الإنسانية» ويبتعد عن خصائص «الحيوانية» لا يمكن أن يتم إلا في محضن «أسرة» قائمة على أساس الواجب والتخصص، ومحوطة بضمانات الأمن والاستقرار العاطفي، فهذا ما يوفر للمجتمع مقومات الترقي على خط التقدم الإنساني. ولذلك جعل الله الزوجة شق النفس، ومحضن السكينة والأمن والاستقرار، فهذا هو المحضن «الإنساني» الوحيد الذي يعد الأجيال التي تسير صعداً على خط التقدم الإنساني، قال تعالى : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة؛ إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ (الروم : ٢١).

الأصل الخامس، هو أن يقوم الإنسان بالخلافة في الأرض على أساس الإحسان في العمل. ولكن ما المقصود بالعمل في التصور الإسلامي ؟ العمل صورة من صور «العبادة»، ويتضح ذلك من قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً** ﴾ (الكهف : ٣٠). فالحضارة في التصور الإسلامي لا تقوم على مجرد العمل، بل تتطلب ضرورة «الإحسان في العمل».

والإحسان في العمل ذو شقين : الشق الأول هو استخدام أقصى درجات المهارة والإتقان فيه. يؤكد هذا قول الرسول صلى الله عليه وسلم : «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه». ولكن هل يكفي الإتقان في العمل والمهارة في أدائه لبناء حضارة حقيقية ؟ الإجابة الصحيحة، هي أن ذلك بالتأكيد لا يكفي. وهنا نصل إلى الشق الثاني لمعنى «الإحسان في العمل»، وهو التوجه بالعمل إلى الله. فالعمل عبادة، والإحسان في العمل مرتبط بمفهوم «الإحسان» في التصور الإسلامي، وهو «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

إذن فالإنسان المتحضر والمجتمع المتحضر هو الذي يؤدي العمل بأقصى درجات المهارة والإتقان، مع مراعاة الله في أدائه؛ فالعامل المتحضر المسلم يرى الله في عمله، أو يؤمن بأن الله يراه.

والأصل في هذا هو أن الإنسان خليفة الله في الأرض، والعمل من أهم وسائل الإنسان لتحقيق مقتضيات الخلافة، ألا وهي عمارة الأرض وترقيتها وفق منهج الله. إذن فالعمل إنما هو لخير الإنسان والإنسانية جمعاء.

لكن المؤكد هو أنه لا ضمانة على الإطلاق أن يؤدي الإتقان في العمل، وأن تؤدي المهارة فيه إلى هذه الغاية، إذا انقطعت صلة العامل بالله، فالإنسان المقطوع الصلة بالله، لن يراعي في عمله وفي نتائج عمله إلا ما يراه من مصالحه المباشرة، ومصالح الأولياء عليه، مهما كانت الوسائل، ومهما ترتب على ذلك من دمار لمصالح الآخرين !

وعليه، فإن وفرة الإنتاج وحده، أو الإبداع المادي وحده، لا يسمى في الإسلام حضارة. فقد يكون، ويكون معه التخلف، وتكون معه الجاهلية : ﴿ **أتبنون بكل ريع آية تعبثون ؟! وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ! وإذا بطشتم بطشتم جبارين، فاتقوا الله وأطيعون، واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون، أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون، إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم** ﴾ (الشعراء : ١٢٨ – ١٣٥).

خاتمـــة :

والخلاصة هي أن الثقافة والحضارة في التصور الإسلامي مرتبطتان ارتباطاً عضوياً. فعندما يكون الجانب العملي للثقافة تطبيقاً واقعياً وعملياً صحيحاً للجانب المعياري فيها، مع استخدام كل معطيات الإنسان والزمان والمكان ... تكون الحضارة. فالحضارة – كما سبق أن قلنا – هي عمارة الأرض وترقية الحياة على ظهرها : إنسانياً وخلقياً وعلمياً وأدبياً واجتماعياً، وفق منهج الله وشريعته.

وعندما يصل المجتمع المتحضر الإسلامي إلى هذه الدرجة، ويظل متمسكاً بمقومات حضارته وهي : إفراد الله بالعبودية – ومن ثم – إفراده بالحاكمية، واعتبار العقيدة هي آصرة التجمع الرئيسية، واعتبار إنسانية الإنسان هي القيمة العليا في المجتمع، واعتبار الأسرة هي قاعدة البناء الاجتماعي، وقيام الإنسان بالخلافة في الأرض على أساس الإحسان في العمل ... عندئذ يتبوأ المجتمع المتحضر الإسلامي مكانته اللائقة به في تربية الإنسانية وقيادتها إلى الحق والعدل الأزليين الكامنين في بنية الكون، وفي فطرة الإنسان :

﴿ ولو أن أهل القرأ آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض .. ﴾ (الأعراف : ٩٦).

الهوامـــش

(١) **سيد قطب** : معالم في الطريق، الطبعة العاشرة، بيروت، دار الشروق، ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م، ص ١٣٥ – ١٣٦.

(٢) **سيد قطب** : خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، الطبعة السابعة، بيروت، دار الشروق، ١٤٠٢هـ – ١٩٨٢م، ص ١١٤.

(٣) **محمد أسد** : الطريق إلى الإسلام، نقله عنه أنور الجندي في : أخطاء المنهج الغربي الوافد، بيروت، دار الكتاب اللبناني، رقم (٦)، ص ٢٤٢.

(٤) انظر : **رشدي أحمد طعيمة** : «اهتمامات الأجانب نحو الثقافة العربية الإسلامية» في دراسات تربوية، ج ٣، يونيو ١٩٨٦م، القاهرة، دار الثقافة للطباعة والنشر، ص ٢٢٢ – ٢٢٣.

(٥) المقصود بالعلوم البحتة هنا، الرياضيات والطبيعة، والكيمياء، والجوانب الفنية لعلوم الصناعة، والزراعة والإدارة.

(٦) **سيد قطب** : العدالة الاجتماعية في الإسلام، الطبعة التاسعة، بيروت، دار الشروق، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، ص ٢٠٢.

(٧) من الملاحظ جداً أنه حتى المنصفين من المفكرين الغربيين لا ينسبون أي تقدم «للمسلمين» وإنما «للعرب»؛ فهم لا يحبون استخدام كلمة «إسلام» أو «مسلمين» !

(٨) عن نص لتوينبي في كتابه «الحضارة في فترة اختبار» نقله عنه أنور الجندي، في أخطاء المنهج الغربي الوافد، ص ٧، ٨، ٢٣٣.

(٩) **سيد قطب** : العدالة الاجتماعية في الإسلام، مرجع سابق، ص ٢٠٢.

(١٠) **سيد قطب** : معالم في الطريق، مرجع سابق، ص ١١٦-١١٧.

(١١) **ابن القيم** : أعلام الموقعين عن رب العالمين، بيروت، دار الجيل، ج ١، ص ٥١.

(١٢) انظر : **محمد أسد** : الطريق إلى الإسلام، مرجع سابق.

(١٣) **سيد قطب** : معالم في الطريق، مرجع سابق، ص ١١٨، ١١٩.

(١٤) المرجع السابق، ١٧٨.

(١٥) المرجع السابق، ١٨٣.

(١٦) نقل عنه **أنور الجندي**، مرجع سابق، ص ٢٣٩.

(١٧) **الشيخ علي طنطاوي** : «سوُّوا صفوفكم» الشرق الأوسط، العدد رقم ٣٢٩٩، في ١٠/١٢/١٩٨٧م، ص ١٠.

(١٨) **سيد قطب** : معالم في الطريق، مرجع سابق، ص ١٥٣.

(١٩) **علي الطنطاوي** : مرجع سابق.

(٢٠) **سيد قطب** : معالم في الطريق، ص ١١٩، ١٢٠.

(٢١) المرجع السابق، ص ٥٩ - ٦٠.

(٢٢) المرجع السابق، ص ١٢١.

(٢٣) المرجع السابق.

(٢٤) المرجع السابق، ص ١٣١، ص ١٣٣.

(٢٥) **أنور الجندي** ، مرجع سابق، ص ٢٢٧.

(٢٦) **سيد قطب** : معالم في الطريق، مرجع سابق، ١٢٣ - ١٢٤.

(٢٧) **عبد الغني عبود** : الأسرة المسلمة والأسرة المعاصرة، الكتاب الثامن من سلسلة الإسلام وتحديات العصر، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٧٩، ص ١٤٣.

(٢٨) **عباس محمود عقاد** : المرأة في القرآن، القاهرة، دار الإسلام، ١٩٧٣م، ص ٤٦ - ٤٧.

(٢٩) المرجع السابق، ص ٤٧.

(٣٠) سيد قطب، معالم في الطريق، مرجع سابق، ص ١٢٤.